تعليمية النص الحجاجي *في كتاب:* "المشوق في الأدب والنصوص والمطالعة الموجهة"

للسنة الأولى من التعليم الثانوي (جذع مشترك آداب)

أ ــ نصيرة غماري
المدرسة العليا للأساتذة –بوزريعة–

ا ــ ملاحظات أولية :

لم يغفل كتاب "المشوق" إدراج "الحجاج" في برنامج السنة الأولى من التعليم الثانوي وهو أمر محمود للغاية؛ ذلك أنه يشكل أحد المحاور الرئيسة التي لا يمكن بحال تجاهلها، خاصة في الظروف التي يشهدها العالم المعاصر من استفحال للعنف بكل أشكاله (المادي والمعنوي)، لذا فإن الحجاج يصبح شكلا خطابيا حاسما في كسب المتلقي (المستمع أو القارئ) بمصادقته على القضايا التي يطرحها عليه الباث (المتكلم أو الكاتب)، ذلك أنّ هدف الحجاج يتمثل في الإقناع ومن ثمة التأثير في السلوك؛ وفي هذا الإطار يستهدف العمل مع التلاميذ فيما يتعلق بتحليل النص الحجاجي وعيه بالنقاط التابعة[**]:

– تمكينهم من إحكام الرهان الأساسي للحجاج وهذا بإعطاء الكلمة فرصة ضد العنف وتسوية النزاعات عن طريق التحاور.

– حملهم على وعي البعد الحواري للحجاج حيث إنه يستلزم حضور الآخر، سواء تعلّق الأمر بذاك الذي نريد إقناعه أو ذاك الذي نريد مناقشة حججه. ذلك أن الحجاج يفترض الاستماع إلى الآخر قصد التصويب والإصلاح ومن ثمة، يؤدي إلى اكتساب القدرة على التداول وصنع القرار المبني على التشاور.

– تفهيمهم البعد المزدوج للحجاج، حيث يقوم على استغلال العقل والعاطفة. وكنتيجة لما تقدّم فإنّ الحجاج يدرك في المقام الأوّل كعمل يمارس على اللغة حيث يستدعي من التلاميذ التحكم المتنامي في الوسائل اللسانية:

1 – الإدراك الدقيق لعملية التلفظ énonciation **والاستراتيجيات اللفظية والصيغية.**

2 – وعي التضمينات والاقتضاءات وتحليل دورها.

3 – القدرة على إنشاء الحجة والمثال في أثناء تشكيل المحاجة.

4 – التدريب والتعويد على تنظيم صيغ مختلفة للخطاب الحجاجي.

وتمارس هذه التصنيفات على النصوص الشفوية والكتابية على حد سواء. كما تمارس على نصوص أدبية أو غيرها. وفي المقابل فإنّ قراءة النصوص تعرّف التلاميذ بمختلف الأبعاد التي يأخذها الحجاج، ذلك

أن الحجاج المباشر وغير المباشر والبرهان والإقناع حاضر في كل النصوص على اختلاف أجناسها وحقبها.

إذا حرصنا على تحقيق هذه الأهداف فإننا نكون بصدد بناء مواطن واع ومعتمد على نفسه بما يتسلّح به في المرحلة الثانوية من آليات تمكنّه من مواجهة الحياة الصعبة التي أصبحت تفسح المجال واسعا لصاحب الكلمة المقنعة.

غير أن ما يؤاخذ عليه الكتاب خلوه من تصنيف النصوص إلى الأنماط التي ارتآها واضعوها، فعلى الرغم من النزعة التجديدية الطامحة إلى التقدم الفكري ومواكبة أهم المناهج العلمية العالمية بالتركيز على أنواع معينة من النصوص–النص الحجاجي والنص التفسيري– لما يتميزان به من إعمال للعقل والفكر المعقلن كما جاء واضحا في تقديم الكتاب "لأن هذين النمطين من النصوص من شأنهما أن يغرسا نزعة عقلية في سلوك المتعلمين وفي طريقة تفكيرهم وإذن، فإيثار النص الحجاجي والنص التفسيري وتأكيدهما في اختيار النصوص الأدبية أو التواصلية إنما حصل بنية تقريب المتعلمين من أسباب العقل – في سياق بيداغوجي – فيتدربون على الوصول إلى قوة الإصابة في الحكم، فيسمو تفكيرهم ويرقى سلوكهم فيبتعدون عن السلبية والحدس والتخمين والانسياق وراء تيارات جارفة دون تبصر ولا تمعن"[1] فإن الكتاب لم يراع هذه الأهداف المسطرة بتحديدها بالدقة المطلوبة إذ خلا من تعريف النمطين تعريفا ملما ودقيقا حيث اكتفى بذكر الأداة المعتمدة فيهما فحسب "والنص الحجاجي قرين التدليل والاستدلال وهي معطيات وليدة العقل. والنص التفسيري يعتمد التبرير في الإقبال على الشيء أو الإعراض عنه. والتبرير والتعليل مصدرهما العقل الواعي المتزن"[2] وهو تعريف يناسب النص البرهاني أكثر من غيره ؛ذلك أنه أغفل البعد العاطفي فيما يتعلّق بالنص الحجاجي الذي يساوي البعد العقلي وقد يفوقه في مقامات معيّنة، إذ إن ما يهم النص الحجاجي هو إنجاح الوظيفة الإقناعيةــ التأثيرية التي يتغيّاها وهو لأجل هذا يحتاج إلى أدوات عقلية وعاطفية. وبدرجة أكثر لغوية؛ ذلك أن اللغة كما يرى بلونتين حجاجية "هذا الطرح الملغز قليلا يجعل من التوجيه نحو نتيجة بعينها خاصية دلالية للجمل(مأخوذة خارج السياق) والبحث في المحاجة يرجع إلى لسانيات اللغة بالمعنى السوسوري للمصطلح.

وإذا ما اعتبرنا، عكس ذلك، المحاجة فعلا خطابيا يتعلّق بالتطبيق الكلامي ضمن السياق، فإننا نكون أمام خيارين ممكنين:

- كلّ كلمة هي بالضرورة حجاجية. وهذه نتيجة ملموسة للتلفظ ضمن الوضعية؛ حيث يهدف كل ملفوظ إلى التأثير في متلقيه أو في غيره وتغيير نظامه الفكري. كما أنه يرغم أو يحثّ الغير على اعتقاد ورؤية وفعل ما هو مخالف لمعتقداته؛ وعليه تكون دراسة المحاجة دراسة نفسية –لسانية أو اجتماعية –لسانية.
- فقط بعض الخطابات حجاجية، والحجاجية هي أن نبحث في صيغة تنظيم الخطابات، وهذه وضعية النظريات الكلاسيكية للمحاجة البلاغية"[3].

كما نجد مكمن النقص في كون الكتاب لم يحدد الاستراتيجية المعتمدة في النصين أو توضيح آلية التحليل. تاركا بذلك التلميذ والأستاذ على حد سواء يتخبطان خبط عشواء لانعدام التوجيه المطلوب.
وما زاد الأمر تعقيدا وعمّق الإشكال أكثر خلو الأسئلة التي لها وظيفة توجيهية من أي مصطلح علمي يشي بنوع النص ويدخل في صميم التحليل الحجاجي أو التفسيري فجاءت الأسئلة نمطية ومباشرة ومتداخلة في مستوياتها. ولنأخذ مثالا على ذلك النص الأول في المطالعة الموجهة "إيماني بالمستقبل لبيرتراند رسل"[4].

أ-أكتشف المعطيات:

1-لماذا كان التفاؤل سائدا في عهد الملكة فيكتوريا؟

2-ماذا نتج عن سيادة العقل و نمو الروح العلمية ؟

3-لماذا يرى الكاتب أن وسائل الهلاك الحديثة أقل إيلاما لضحاياها من الوسائل البدائية في الحروب القديمة؟

4-ما السبيل الذي يراه الكاتب نافعا لمنع الحروب ؟أذكر نقاط القوة و الضعف في الرأي الذي يراه؟

5-اذكر مآسي الحروب قديما وحديثا في مختلف ميادين الحياة؟

6-لماذا صارت الحرب اليوم أشد قسوة من الحروب القديمة؟

7-ما الشعور الذي انتاب الكاتب في خاتمة مقاله، وعلام يدل هذا الشعور؟

ب-أناقش المعطيات:

1-يرى الكاتب أن التعصب الديني كان وراء اندلاع الحروب، إلى أي مدى يمكن الأخذ برأيه هذا؟

2-ما الذي كان وراء اندلاع الحرب العالمية الأولى؟ والحرب العالمية الثانية؟

3-ما الذي دفع البلدان الأوروبية إلى شن حرب على البلدان الآسيوية والإفريقية؟

4-ما آثار هذه الحروب على البلدان الأوروبية والآفرو -آسيوية؟

5-وازن بين دعوة الكاتب إلى نشأة حكومة واحدة تسيطر سيطرة جدية على جميع القوات المحاربة في العالم كله وبين ظهور فكرة العولمة، مع تبيان أوجه الخلاف والاتفاق؟

6-ماذا تعرف عن حرب الثلاثين سنة في أوروبا؟

7-ما آثار هذه الحرب على فرنسا وألمانيا؟ اذكر بعض المجازر التي وقعت في هذين البلدين خلال هذه الحرب؟

8-ما هي -في رأيك - العوامل الكفيلة بإضعاف آلة الحرب في العالم؟

ج-أستثمر المعطيات:

8-ما نمط التعبير الغالب على هذا النص؟

9-حدد خصائصه وابن فقرات من إنشائك على منواله.

من الملاحظات الأولية التي يمكن تسجيلها على هذه الأسئلة ما يأتي:

أ-عدم توخي الدقة في تصنيفها حيث تتداخل خطوات التحليل، فنجد في (أ) "اكتشاف المعطيات" أن السؤال (4) جاء دخيلا على المجموعة إذ من المفروض أن يؤجل إلى المرحلة التابعة (ب)؛ ذلك أنه مكمل للسؤال (ب-8).

ب-جاءت الأسئلة في (أ) مقسمة إلى مجموعتين: مجموعة ذات دلالة إيجابية وأخرى ذات دلالة سلبية حيث ورد السؤالان (أ1) و (أ2) يمثلان المجموعة الأولى و الأسئلة (أ3-أ7) ممثلة للمجموعة الثانية. وهو تقسيم فرضه النص نفسه وهذا بتضمن الفقرة الأولى فقط دلالات إيجابية أما بقية الفقرات فذات دلالات سلبية؛ غير أن الملاحظ أن واضع الأسئلة لم يأخذ هذا التوزيع بعين الاعتبار فلم ترد أسئلة عن مدلول (وظيفة) هذه الهيمنة للدلالة السلبية.

ج- غابت الأسئلة المتعلقة بترابط الفقرات بعضها ببعض ومن ثمة دراسة النص من حيث الانسجام والاتساق على الرغم من علاقتهما المباشرة ببنية النص الحجاجي ودورهما الوظيفي الذي يؤديانه في الربط بين مراحل نمو النص الحجاجي الذي يعدّ النص المقدم للدراسة أنموذجا عنه. والغريب في الأمر أن مقدمة الكتاب حرصت على إبراز هذين العنصرين في تركيب فقرات النص "وعلى الأستاذ -دارس النص- أن يعرف تلاميذه بعناصر الاتساق والانسجام من باب الدراسة الجمالية للألفاظ والتراكيب اللغوية من جهة ومن باب اطلاعهم على الأدوات المشكلة لتماسك النصوص وتدريبهم على محاكاة بنائها من جهة أخرى للنص"[5].

د-مع أن معظم الأسئلة المقترحة تتضمن بعدا حجاجيا-والسؤالان (ج8 وج9) يؤكدان ذلك- فإنها لم تذكر ذلك صراحة وهو أمر يجعل التلميذ يحوم حول الموضوع دون أن يقارب عمقه. ولا يخفى ما لتحديد نوع النص وتصنيفه سلفا للتلميذ في هذه المرحلة التأسيسية من توجيه لمجال الرؤية لدى التلميذ والأخذ بيده ليهتدي إلى معطيات النص بشكل مباشر؛ ذلك أن التلميذ مطالب في هذه المرحلة من التعليم -الأولى ثانوي- بالتعرف على الآلية التي يشتغل وفقها النص الحجاجي والاستراتيجية التي يعتمدها الكاتب "المحاجج" لعرض قضيته والدفاع عنها.

II- خصائص النص الحجاجي:

عندما يكون النص حجاجيا، يجب أن نميّز بين الموضوع والقضية، حيث نقصد بالأول ما يعالجه النص من موضوع ونقصد بالثاني وجهة النظر التي يدافع عنها الباث ويتبناها. لذا، يقترح الخطاب الحجاجي على المتلقي تخطيطا استراتيجيا موجّها للقضايا التي يعالجها والتي يتخذ الباث موقفا منها ويكون هدفه التأثير في المتلقي وحمله على تبني القضية التي يدعمها ويستنكر القضية التي يدحضها، لذا فإنه يضع علامات في خطابه تقود المتلقي نحو الوجهة التي يريدها فيصادق على قيمه ويتبنّاها غير أن نجاح الباث في مقصده يتوقف على طبيعة القيم وطريقة تنظيمها في خطابه لذا، فإنّ ما يهمنا هو <u>الملفوظ الخطابي</u> عامة والحجاجي خاصة حيث يكون المقام التواصلي مكشوفا ومعلنا وهذا عن طريق تقديم عدد معيّن من المؤشرات للقارئ يعمل حضورها على تأمين انسجام الخطاب وتناميه من جهة والتعرف على نوع العلاقة التي يحاول

الباث إنشاءها مع المتلقي من جهة أخرى (علاقة الفوقية أو الدونية أو التماهي أو الاحتفاظ بمسافة ما...). إنّ فهم النص الحجاجي يعني الانطلاق من النص كما هو مقدّم وتجميع المؤشرات في شبكة ثم تحليل كيفية اشتغاله في مجمله والتعرف على الحجج المختلفة.

ولتحليل الخطاب الحجاجي نقترح الخطوات التابعة المستوحاة من قراءاتنا لبحوث أكاديمية حاولت تمثّل بنية النصوص الحجاجية وتقديم خطة عمل لمقاربتها.

1-استحضار المقام التواصلي و تمثله

إذا كانت اللسانيات قد اهتمت بالجملة كوحدة مجردة وبنظامها النحوي والدلالي (المتوصّل إليه بواسطة دلالة الكلمات التي تكوّنها)؛ فإنّ اهتمام التداولية انصبّ على الملفوظ باعتباره جملة ضمن مقام متجددين؛ ذلك أن المتخاطبين في الوضعية التواصلية لا يتبادلون جملا وإنما ملفوظات. إنّ الملفوظ في الواقع يطابق جملة مكتملة بواسطة المعلومات المستخلصة من المقام الذي تلفظت فيه وبهذا يكون الملفوظ نتاج الجملة.

ويتم تمثل المقام التواصلي بواسطة دراسة مؤشرات التلفّظ ونقصد بها مختلف العلامات التي تقدّم معلومات عن وضعية الباث إزاء ملفوظه؛ ذلك أنه بإمكانه أن يتخذ مسافة مما يقوله فيكون أقرب مسافة منه أو أبعد وهذا بتوظيفه علامات تدل على حضوره أو تغييبها فإذا قال مثلا: أعتقد أنّ... فإنه يتبنى كليا ملفوظه أما إذا فضّل إسناد الملفوظ إلى ضمير الغائب أو المجهول، فإن مسؤوليته تقل ومن ثمة يكون أبعد مسافة من ملفوظه.

ولأجل تحقيق هذه الاستراتيجية، فإنه يوظّف مؤشرات تلفّظية تأتي وفق إجراءات خطابية متنوعة هي كالآتي:

أ-المعيّنات (المؤشرات الدالة على هيئات التلفظ)[6]: هي الكلمات التي تكتسب معناها من سياق التلفّظ الذي ترد فيه وليس من خارج النص (اللجوء إلى القواميس)، فعند كل عملية تلفّظ تنتج هيئة (ذات-مرسلة) بعينها ملفوظا بعينه متوجهة به نحو هيئة معينة (ذات -مرسل إليها) في لحظة ومكان معينين.

وتقوم المعيّنات ممثلة في الضمائر وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة بمهمة التعيين والكشف عن هاتين الهيئتين، وأخيرا هناك موضوع الملفوظ أي ما هو الموضوع الذي يتناوله الملفوظ.

ب-المكيّفات modalisateurs:

-هي الكلمات والعبارات التي تعبّر عن حكم قيمة والتي تكشف عن موقف الباث من قضية ما ورأيه فيها وقد تكون مباشرة أو غير مباشرة حيث استحسان قضية ما هو استهجان لنقيضها بشكل مضمر وضمني وتتنوع الكلمات الدالة على أحكام القيمة فقد تكون:

-اسما: مثل كلمة "باطلا وجهلا" في الملفوظ الآتي: يدعو البعض باطلا وجهلا إلى اللجوء العسكري لحلّ الأزمات السياسية.

-فعلا مثل: الأفعال الدالة على وجهة النظر وهي نوعان:

العاطفية مثل: أحبّ، أكره، أخشى...

التقديرية مثل: أظنّ، أعتقد، أجزم...

- شبه الجملة: دون شك، بالتأكيد...

غير أنه يجب التمييز بين الملفوظ الذي يحمل حكما عاما موضوعيا قابل للبرهنة والتمحيص لأنه يحيل إلى معطيات ملازمة للموضوع والملفوظ الذي يحمل حكما قيميا ذاتيا (تزييني أو تقبيحي) حيث يعبّر عن وجهة نظر الباث لأن تأويلها يتوقف على إدراك هيئة التلفظ (الباث) المحكومة ببنيات ثقافية وأخلاقية وفردية ذلك أن ما هو جميل بالنسبة إليّ قد يكون غير ذلك للآخر.

توظيف أسلوب الشرط ومتممات الجملة كالصفات والأحوال والجمل الاعتراضية والجمل المفسِّرة... يساعد في تحديد وضعية الباث إزاء ملفوظه.

2- تفكيك التنظيم العام للخطاب الحجاجي:

يقوم النص الحجاجي على بنية محددة ويتضمّن منذ البداية قضية مركزية والدفاع عنها يكون في التوسيع وينتهي بخاتمة تلخّص التوسيع ويقصد بالتنظيم النصي الطريقة التي تترابط بها هذه العناصر حيث تشكّل نسيجا متشابكا وفي هذا المستوى، يجب على القارئ-المحلّل الانتباه إلى النقاط الآتية:

أ -الأنماط المختلفة التي ترد وفقها الجمل؛ ذلك أن انتقاء الباث -المحاجِج نوعا بعينه من بين ممكنات عدة له بعد تأثيري يحاول أن يمارسه على المتلقي كأن تكون الجملة طلبية أو استفهامية أو تعجبية أو تهكمية...

ب-دراسة البنية الزمنية التي تصاغ فيها الأفعال كالبناء للمجهول والمعلوم؛ ذلك أنّ الباث لا يقدم على توظيف إحدى الصيغتين إلا ويكون له قصد يرمي إليه فإسناد الفعل للمجهول على سبيل المثال في سياق معيّن (الوعظ مثلا) يسهم في التقليل من العنف التلفظي ويرفع التهمة عن متلقي بعينه فيكون الملفوظ عاما يعني كلّ المتلقين. كما يفيد في سياق آخر تحقير المسند إليه والحط من قيمته، الأمر الذي يؤثر على المتلقي ويعمل على هزّ ثقته...

ج- مؤشرات التنظيم: والمقصود بها دراسة العلاقات التي تحكم الجمل وتربط بينها إذ تعدّ هذه العلاقات الدعامة التي يستند إليها الخطاب -بمختلف أنواعه- ليخلق وحدته وهذا باتصال الفقرات بعضها ببعض وتضمّ هذه المؤشرات الروابط النحوية كروابط النسق ومتممات الجملة والألفاظ ذات القيم الدلالية المترادفة مثل ينتج عن هذا، يمكن أن نستنتج... والألفاظ الدالة على تمفصلات التفكير وتنظيم المعلومة والتنظيم الطباعي.

-الحجة، النتيجة، قانون المرور:

يعرفها كريستيان بلانتين بما يلي:

"للحجة والنتيجة وقانون المرور أوضاع الفعل وأوضاع لسانية ومعرفية مختلفة:

للحجة وضع الاعتقاد (مقدّمة بوصفها كذلك) وتشاركها معطاة حَدَثِية (مقدّمة بوصفها كذلك) غير قابلة للنقاش. ويمكن لمستقبل المحاجة رفض هذه المعطاة طبعا، لكنه إذ ذاك يكون ملزما بتبرير رفضه وبهذا يفرض عليه تحمّل عبء الدليل.

-الملفوظات- النتيجة:

لكلمة "محاجة" "نتيجة" في المحاجة معنى خاص نسبيا؛ حيث إن نتيجة النص تعرّف بصورة آلية كخاتمة لهذا النص. في حين يمكن أن تأتي النتيجة المدعّمة بواسطة النص أن تأتي في المقام الأول متقدَمة بذلك الحجة –وهذا الوضع شائع في الصحافة–.

كما تسمح العملية الحجاجية بنقل المعارف ومعتقدات وسلوكات بالية إلى موضوعات أو مواقف جديدة، وهي بهذا تلعب دورا شكليا على الأقلّ في أخذ القرار وتساعد في إنشاء إجابة لثلاثة أنماط من الأسئلة:

ماذا علينا أن نعتقد؟ أعلينا أن نعتقد هذا؟

ماذا علينا أن نفعل؟ أعلينا أن نفعل هذا؟

بماذا علينا أن نحكم؟ أهو جميل أم حسن؟

ينجم عن هذا، ظهور الملفوظات –النتيجة وفق صيغتين لسانيتين أساسيتين. فبالنسبة للنمط الأول من الأسئلة يكون للملفوظ– النتيجة صيغة تقريرية forme constative **إذ يتعلّق الأمر نموذجيا بملفوظ في صيغة الحاضر التقريري: *"إنّ الأشياء هكذا تأكيدا"* أما بالنسبة إلى الحالة الثانية، يكون للملفوظ–النتيجة صيغة أمريه** forme injonctive **– نموذجية في الأمر:" *إذن، لنفعل هذا*!"**

قانون المرور:

تتمثّل وظيفة قانون المرور في نقل الاعتماد الممنوح للحجة إلى النتيجة؛ لذا يفترض هذا المرور دائما قفزة أو اختلاف في المستوى بين الملفوظ –الحجة والملفوظ – النتيجة (ج) هناك دائما ما هو "أكثر" أو "أقلّ" في النتيجة عما يوجد في الحجة: إنّ النتيجة أقلّ ضمانة من الحجة وتحديدا في حالة ما إذا قالت أكثر من الحجة. فالنتيجة انعكاس للمعطاة ، انعكاس خطِر دائما غير أنه ناجح بالقوة في الوقت نفسه.

غير أننا لا نرضى أحيانا عن ضعف النتائج المقامة بواسطة المحاجة وذلك لأنها غالبا ما تستهدف بناء فرضية العمل والفعل أكثر مما تستهدف تعديل المعارف.

يقدَم قانون المرور للمعطاة المعنى الحجاجي الذي لم تكن تمتلكه من قبل. وهذه مسلمة أساسية في المحاجة الخطابية تستمدّ المعطاة بواسطتها توجّهها نحو النتيجة. حيث إنها تعبِّر عن حقيقة عامة أحيانا من النوع المَثَلي proverbial **المعزو إلى متلفِّظ جماعي: *"نعلم أنّ..."* والذي غالبا ما يكون ضمنيا. كما أنها تسمح للمحاجِج بإسناد أقواله إلى مبدأ أو مواضعة مقبولة في المجتمع الكلامي ويطلق على هذه المبادئ مصطلح *الأفكار العامة*** lieux communs **أو Topoï (من الأصل اليوناني** Topos**) ولقد أعيد تعريف هذه المصطلحات من قبل نظريات المحاجة المختلفة"[7].**

3- التوجيه الحجاجي في اللغة:

أ- التلقيبات واتخاذ المواقف:

يصف Christian Plantin **في نظريته الحجاجية الملفوظات التحليلية بأنها صادقة دائما بما أنها تترك اللغة تتكلّم عن نفسها إذ تحيل إلى نتيجة مضمرة معيّنة بواسطة توجيه الخطاب إليها ذلك أن "الذي يلقّب يلتزم خطابيا حيث إن الأسماء لا تعمل على تلقيب الذوات فحسب، بل إنها تلقّبها دائما وفق وجهات نظر معيّنة ففي الوقت الذي نلقب فيه نفترض مسانيد نلحقها بالذوات. إنني بتلقيب الشخص س بمجنون ألحق به جملة من المقولبات : المجنون شخص خطير، علينا الاحتماء منه، ويجب السيطرة عليه وسجنه... هذه المقولبات وإن لم تكن محدّدة للتصرفات، فإنها تعمل على توجيه الخطاب على أي حال"[8].**

ب-الأفكار العامة les Topoï:

تميّز النظرية الحجاجية بين نوعين من الكلمات فهناك كلمات فارغة مثل الروابط المنطقية وكلمات ملأى ذات دلالات قارة ومتواضع عليها؛ ذلك أن معناها مستمد من نظام اللغة ذاتها فهو خارج السياق وسابق للاستعمال وهي بهذا "أداة لسانية تصل كلمات معينة وتنظّم الخطابات الممكنة وتحدد الخطابات "المقبولة" والمنسجمة في المجتمع الكلامي"[9] ولنأخذ على سبيل المثال كلمتي مهم وتافه في الملفوظين ("أ" و"ب")

-أ -هذا الكتاب مهم

-ب- هذا الكتاب تافه

فإنه يمكن اعتبار كلمتي "مهم" و"تافه" لا تحيلان إلى خاصية محددة في الكتاب وإنما تتضمّنان إشارة إلى فكرة عامة تبيح نتائج معيّنة في مجتمع لساني معين إيجابية في (أ) وسلبية في (ب) منها:

-يجدر بك أن تطالعه:

النتيجة

-أ -هذا الكتاب مهم ← يجدر بك أن تطالعه

-ب-هذا الكتاب تافه ← لا تضيّع وقتك في مطالعته

ج -الروابط الحجاجية:

من خلال فكرة السلالم الحجاجية نتحصل على نوعين من التوجيه الحجاجي:

توجيه يكون لصالح نفس النتيجة فتكون الحجة (2) مدعمة لنتيجة الحجة (1):

هذا الكتاب مهم كما أن سعره مناسب:

هذا الكتاب مهم ← اشتره

سعره مناسب ← اشتره

وتوجيه يكون ضد النتيجة (1) فيسمى بالتوجيه المضاد، حيث تكون الحجة (1) لصالح النتيجة (1) والحجة (2) ضد النتيجة (1) لكن لا يحسم المتكلم أمر الحجتين لتساويهما فتتساوى بذلك النتيجتان:

المسرحية ممتعة وأنا متعب.

-المسرحية ممتعة ← لأشاهدها

- أنا متعب ← لا أشاهدها

كما توجد روابط حجاجية لا تنتمي إلى نفس الفئة الحجاجية فتعمل على إلغاء التوجيه الحجاجي للملفوظ السابق وتثبت التوجيه الحجاجي للملفوظ التابع:

هذا الكتاب مهم لكنه باهض الثمن ← لا تشتره

إن هذا الكتاب باهض الثمن لكنه مهم ← اشتره

إن هذه الروابط تستمد توجيهها الحجاجي من إلحاقها بالكلمات الملأى وهي بهذا كلمات وصل وتوجيه حيث تظهر معلومات النص ومحاجاته بشكل خاص ؛حيث تضع معلومة النص تحت تصرّف القصد الحجاجي المتضمّن له[10].

4- المؤشرات المعجمية:

-دراسة الوحدات المعجمية: "إنّ الخطاب يرمي دائما إلى تغيير أوضاع المتلقّين الذين يوجّه إليهم. وهو باستخدامه الكلمة ذات الخصائص التقويمية والاقتضائية القائمة في اللغة وذات الدلالات المضافة القادمة من الاستعمال، يكون ذا فاعلية أكبر في تغيير أوضاع المتلقين تلك. كما أن الخطاب إذ يعمد إلى اختيار كلمة دون أخرى مما يرادفها أو يظنّ أنه يرادفها، إنما يرمي إلى مزيد التأثير في ذهن المتلقين على أساس أنّ الكلمة المختارة أعلق بعالم خطابهم وأمضى أثرا فيه بما لها من زوائد معنوية جاءتها من اللغة أو من الاستعمال أو منهما معا "يعمل فعل قراءة النص الحجاجي على رصد الكلمات المشكِّلة لحقل معجمي واحد وتجميعها مما يساعد على تحديد القضيتين المتناقضتين الحاضرتين في النص؛ ذلك أنّ تقابل القضيتين -القضية التي يدعمها الباث والقضية- الضد التي يعمل على إبطالها-يتمظهر في النص بواسطة تقابل الحقلين الدلاليين. وهنا تجدر الإشارة إلى أن القضية- الضد قد يصرّح بها الباث أو يضمرها فيكون على المتلقي دور استنتاجها عن طريق الاقتضاء والمفهوم فما يميّز الخطاب الأدبي عموما هو المسكوت عنه من قبل الباث وطريقة اشتغال الروابط الحجاجية غالبا ما تكون مضمرة؛ ذلك "أنّ النشاط الخطابي يعمل على تشابك القول واللاقول... وكثيرا ما يتلفّظ المتكلّم الصريح لتمرير المضمر عاكسا بهذا التراتب العادي للوصول إلى غاياته "[11] ومن بين المبادئ المنهجية المستعملة لكشف التضمينات (ما لا يصرّح به الباث وعلى المتلقي استنتاجه) مبدأ التعاون لـــجرايس (1975) principe de coopération الذي نصّه "قم بمساهمتك في التواصل بالطريقة التي يتطلبها العرف في التواصل الذي أنت وفي الوقت المناسب "وتكمن أهمية هذا القانون في تقديم المقدّمات المنطقية prémisses الغائبة عن القياس الإضماري حيث التضمين فيها هو النتيجة syllogisme elliptique وهكذا يمكن للملفوظ (أ) لكن (ب) "الجو جميل، لكني متعب" أن يأخذ الشكل التابع: "من (أ) نستخلص النتيجة (ج) ومن (ب) نستخلص النتيجة لا-(ج)"

- من (أ) (الجو جميل) نستخلص النتيجة (ج) (لنخرج للتنزه)
- من (ب) (لكني متعب) نستخلص النتيجة لا-(ج)(لا نخرج للتنزه)
- من (أ) لكن (ب) نستخلص النتيجة لا-(ج)[12]

5ــ تحديد الإضمار في الخطاب: بالاستناد إلى مقام التلفظ يكون بإمكان المتلقي تحديد القضايا المضمرة التي يفضل الباث الإشارة إليها بشكل غير مباشر فاسحا المجال لكفاءة المتلقي اللغوية ومعرفته القبلية "بما أنّ فكّ الإضمار نشاط مركّب يفترض تحكما كبيرا في سير اللغة، فإن دعوة القارئ أو المتفرّج القائمة لحلّ هذه الألغاز الصغيرة و بملئه شخصيا فجوات الملفوظ بإمكانها أن تكون وسيلة لإنشاء تواطؤ ثمين معه"[13] ويتمثل الإضمار في الاقتضاء والمفهوم والفرق بينهما أن الاقتضاء يأتي مسجّلا في بنية الكلمة والملفوظ بمعزل عن السياق الذي وردت فيه بغض النظر عن مقام التلفّظ كما لا يمكن للباث إنكارها ومثاله الملفوظ الآتي: "طلب منا الأستاذ إنجاز بحث خلال عطلة الأسبوع" فالاقتضاء المستنتج من الملفوظ هو "المتكلّم طالب" وهي قضية مضمرة لم يصرّح بها المتكلّم لكنها مسجّلة في الملفوظ وثابتة أما القضية المضمرة الثانية التي يمكن استنتاجها فإنها تتمثل في المفهوم التابع: "لا معقولية الطلب لقصر المدة وكون المكتبات لا تعمل"، غير أن هذه القضية غير مسجّلة في الملفوظ وتعتمد على السياق الذي ترد فيه وليست أكيدة دائما لأن بوسع الباث أن ينفيها كما أنها احتمالية ومن ثم فعددها مفتوح للتأويل[14].

إنّ هذه المؤشرات تعمل في وقت واحد، حيث لا يمكنها أن تعمل بمعزل عن بعضها بعض؛ ذلك أنها تكون غير دالة. إنّ تضافرها يوضّح الفهم غير أن على القارئ أن يراعي كيفية توزيعها في النص.

6 ــ النص الحجاجي والأسايب البلاغية:

الوظيفة التأثيرية- الإقناعية للتشبيه:

يوافق التشبيه الاستعارة من حيث الهدف والغاية إذ يرمي كلاهما إلى إحداث التأثير والإقناع عن طريق تقريب القضية المدعاة من ذهن المتلقي ونفي الاستبعاد والاستغراب عنها وهذا بجعلها ممكنة ومحتملة؛ غير أنهما يختلفان من حيث طبيعة كلّ منهما ؛ذلك أننا "إذا كنا نجد في الاستعارة إبدالا قد يحصل به اختصار وإيجاز، وذلك بوضع المستعار مكان المستعار له، فإن التمثيل يدور في نطاق من المقارنة والمقايسة والمشابهة من غير إبدال أو إنابة"[15].

ولقد تفطّن النقاد القدامى لحجية التخييل بما له من قدرة على تصيير المجرّد ملموسا والغائب حاضرا مشاهدا؛ الأمر الذي يسهم في إقناع المتلقي بما يسمعه. ونظرا لما يقدّمه المجاز والتمثيل والكناية من طاقة إقناعية كان البلاغيون القدامى ينصحون بضورة تدعيم القول الخطابي (الخطبة الإقناعية) بالقول الشعري (التخييل) وتدعيم القول الشعري بالقول الخطابي، حيث يفرّق بين الخطابين بدرجة حضور هذا العنصر أو ذاك و هيمنته الخطابية. يقول حازم القرطاجني محدّدا شروط توظيفهما: "وينبغي أن تكون الأقاويل المقنعة الواقعة في الشعر، تابعة لأقاويل مخيّلة مؤكّدة لمعانيها، مناسبة لها في ما قصد بها من

الأغراض، وأن تكون المخيّلة هي العمدة. وكذلك الخطابة ينبغي أن تكون الأقاويل المخيّلة الواقعة فيها تابعة لأقاويل مقنعة مناسبة لها مؤكّدة لمعانيها، وأن تكون الأقاويل المقنعة هي العمدة"[16]. وقد دفعت هذه المراوحة بين الخطابين حازما إلى استحسان شعر المتنبي وعدّه أنموذجا يحتذى بما يضمّنه من إقناع يعضد الصورة المتخيّلة فيتلاقى بذلك العقل والخيال لترسيخ نتيجة واحدة في ذهن المتلقي فيقبلها ولا يردها "وقد كان أبو الطيّب يعتمد هذا كثيرا ويحسن وضع البيت الإقناعي من الأبيات المخيّلة لأنه كان يصدر الفصول بالأبيات المخيّلة ثم يختمها ببيت إقناعي يعضد به ما قدّم من التخييل ويجمّ النفوس لاستقبال الأبيات المخيلة في الفصل التالي، فكان لكلامه أحسن موقع في النفوس بذلك ويجب أن يعتمد مذهب أبي الطيّب في ذلك، فإنه حسن"[17].

2- الاستعارة:

تعدّ الاستعارة من الوسائل التي يعوّل عليها كثيرا في توسيع الحجاج لما توفّره من قدرة على الإفهام والإقناع وبما تثيره من إيحاءات ودلالات تنتجها تداعيات الصورة المجازية "ومن ثم، شكلت محط اهتمام العديد من الدراسات التي استهدفت الكشف بشكل عام عن فعاليتها الإقناعية والأسلوبية. لقد أصبحت تشكّل إحدى الأساليب القوية للتبليغ فهي حاضرة في مختلف مظاهر حياتنا العلمية والعادية... إنها أداة فعالة وقادرة على الإيصال والتبليغ بشكل مؤثر فبواسطتها لا تنقل فقط كلمة عن معناها، وإنما تدعي معناها لمعنى كلمة أخرى على سبيل المبالغة في أداء المعنى بالمطابقة بين كلمتين وهي مطابقة تثبت بها في ذهن المتلقي المعنى الذي نقصد إليه"[18].

إنّ القيمة الحجاجية للاستعارة ليست بأيّ حال نقل اسم لاسم واستعارته إياه بل هي شيء أعمق من هذا؛ حيث تقيّد ادعاء معنى الاسم المستعار للشيء المستعار له أي نقل المعاني التي يختصّ بها المستعار للمستعار له فإذا قلت قابلت ملَكا فأنا لا أقصد ملكا بالحقيقة فذاك محال وإنما لإنسان في صورة ملك لما له من صفات الطهر والبراءة والصفاء. ولا يخفى ما لهذه الطريقة في الوصف من فعالية في استحضار الصورة في ذهن المتلقي والتأثير فيه بأقلّ تعبير ممكن حيث "تسمح لنا بأن نقول أكثر مما يمكن قوله حرفيا، ومن ثمّ، فالاستعارة ليست فقط واقعة لغوية (التي يمكن انطلاقا منها القيام بأحكام سليمة تركيبيا) بل واقعة تفرض أحكاما معيّنة وفق تأويل دلالي وتداولي خاص مردّه إلى كونها تتضمّن معنى يتجاوز المعنى الحرفي"[19]؛ ذلك أننا نستعمل في التعبير الاستعاري قياسا إضماريا تحذف مقدمتاه ويكتفى بإثبات نتيجته التي هي مقصد المتكلّم وعليها الاعتماد في إحداث التأثير المطلوب والمناسب في المتلقي الذي قد تفشل اللغة المباشرة في تحقيقه. ويأخذ هذا التعبير الاستعاري الشكل الاستدلالي الآتي:

المقدمة الكبرى : الملك متناهي في صفات الطهر والصفاء والخيرية

المقدمة الصغرى : الموصوف يتصف بصفات الملك عن طريق المشابهة

النتيجة الاستعارية: الموصوف ملك

غير أنه يشترط في مستخدم الاستعارة والمجاز عموما التقيّد بالشروط التداولية لتوظيفه توظيفا ملائما كالمقام الداخلي والخارجي وملابسات التلقي والمقاصد وتجنب الإغراب والإبهام وإلا فقدت قيمتها

الحجاجية بل قد تنقلب إلى حجة–ضد– تساعد على تبكيت المتكلّم وإبطال دعواه. كاستعارة معني النعومة والنضارة من اسم الوردة وإطلاقها على امرأة جميلة وأنيقة لكنها نمّامة فيقول المتكلم كلّمت وردة آخذا بعين الاعتبار الصفات الإيجابية للوردة فحسب، فيذكره المتلقي بصفاتها السلبية المتمثلة في أذيتها قاصدا بذلك تبكيته وإبطال النتيجة التي ادعاها "لكن للورد شوك بالغ الألم" والذي مكّن المتلقي من قلب النتيجة هو تغافل المتكلّم عن بعض الشروط التداولية أي معرفة المتلقي بأخلاق الموصوف.

3–التشبيه الضمني:

يقوم التشبيه الضمني هو الآخر على فكرة المشابهة، وهو ينتمي إلى صنف الحجاج الاستقرائي مثل بقية أنواع التمثيل، لذا يعد أداة إقناع تلجأ إليها المحاجة لإحداث الإقناع مصحوبا بالإمتاع كونه تشبيها لا يوضع فيه المشبه والمشبه به في صورة التشبيه المعهودة والمعتادة بل يلمحان في التركيب ويستنتجان من السياق ووظيفة هذا التشبيه تتمثل في الكشف عن صحة الحكم الذي أسند إلى المشبه وإقامة الحجة على إمكان وقوعه كقول الطغرائي موصيا بملازمة الأصدقاء وإن صدرت منهم الإساءة لطبيعتهم البشرية التي تحتّم صدور الخطأ منهم أحيانا إذ يستحيل وجود إنسان يخلو من عيب ويكون متصفا بالكمال:

تريد مهذّبا لا عيب فيه وهل عود يفوح بلا دخان

فأنت ترى أنّ هذا التشبيه ورد بشكل ضمني؛ حيث تستنتجه من السياق فكما أن عود الطيب الذي ينتفع به مستعمله ويستمتع به فإنه لا يخلو من أذى المتمثل في الدخان، فكذلك الإنسان لا يخلو من عيب بحكم طبيعته الإنسانية التي تنفي عنه صفة الكمال.

دراسة البنيات الخارجية المدعمة للخطاب الحجاجي:

ــ الاستشهاد: إن الاستشهاد بالنص الديني ونصوص الغير المشهود لهم بالعلم والحكمة، يعدّ من الآليات الحجاجية النقلية التي تلزم المحاجَج بالمصادقة على صحة القضية التي يطرحها العارض المستدل؛ ذلك أنه لا يترك مجالا للاعتراض لما يتطلبه الدليل النقلي من وجوب الإذعان له والتسليم بصدقه؛ غير أنه يجب التنبيه ههنا إلى أن اللجوء إلى هذا النوع من الحجج مشروط باعتقاد المتلقي وانتمائه إلى المجتمع الثقافي (الإيديولوجي) نفسه الذي ينتمي إليه الباث؛ ذلك أن عدم انتماء المتلقي إلى هذا المجتمع يسلب هذه الحجج قيمتها الإقناعية.

–المثل و القصة:

مثلما عدت الاستعارة قياسا إضماريا عدّ المثل استقراء بلاغيا، حيث حكم الجزء ينسحب على الكل انطلاقا من عقد مشابهة بين حالتين متماثلتين من حيث المقدمات فتعمّم نتيجة المثل على نتيجة القضية المدعاة. وهو بهذا حجة جاهزة مثلها مثل الحجج النقلية المستمدة من أقوال الحكماء والأحاديث المأثورة التي تستمد قوتها الإقناعية من إجماع الناس على صدقها.

وعلى العموم، يمكن إجمال ما تم عرضه من تقنيات لغوية إقناعية من خلال تقديم الخطاطة* التابعة:

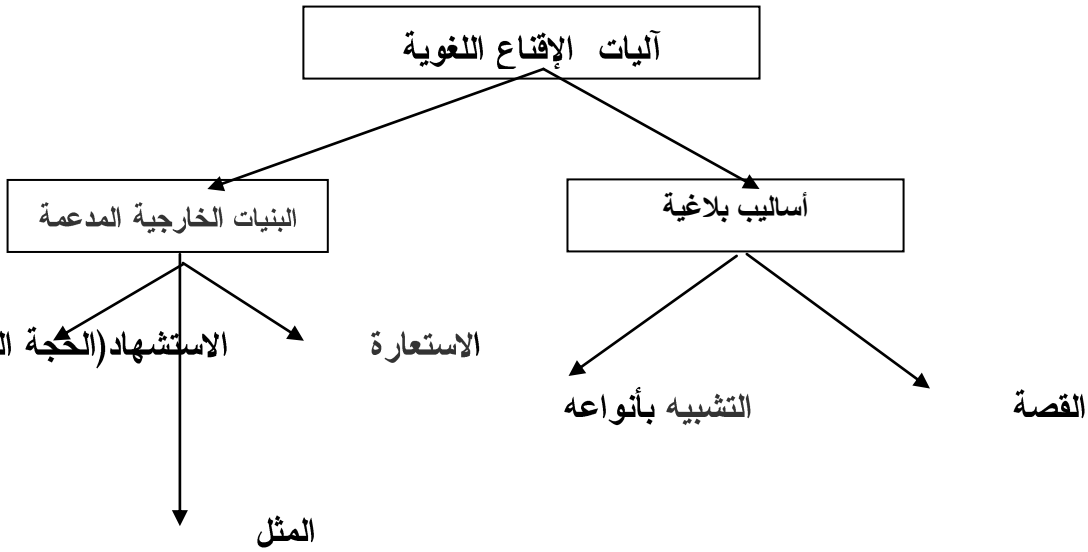

في الختام نؤكد ضرورة وعي التلاميذ بإجرائية النص الحجاجي من خلال استراتيجياته الإقناعية وآلياته المتنوعة التي يؤدي توظيفها توظيفا واعيا إلى تعديل سلوك التلميذ؛ حيث يستبدل العنف اللفظي والمادي الناجم عن غياب الإقناع بالكلمة المقنعة التي تقوم على الحوار والاستماع إلى الآخر.

الهوامش:

[*] **– ملاحظة: تم اتخاذ عدد من البحوث المنشورة في بعض المواقع الإلكترونية منطلقا لإقامة هذا التصور المنهجي لتحليل النص الحجاجي وهي:**

-Le texte argumentatif : prof/Gachon de L'ÉNONCIATION du langage -Les indices - Le sens

-Comment lire UN texte

Cours sur l'énonciation en linguistique française

[**] **– صاغت هذه الأهداف أكاديمية نانسي ميتر** Academie de nancy – Metz **(المفتشية البداغوجية الجهوية للآداب) فيما يتعلّق ببرنامج السنة الأولى والثانية من التعليم الثانوي، ولقد اعتمدناها لما لها من إقناع يتلخص في تأثير الحجاج في سلوك المواطن (التلميذ) وإدماجه في الحياة العملية الاجتماعية حيث يساعده على كسب الكفاءة اللاّزمة لتشكيل خطاب مقنع ومؤثر.**

Académie de Nancy-Metz Inspection pédagogique régionale des lettres Français en classe de seconde et première(séries générales et technologiques-le document du C .N.D.P)

.Stéphane Fontaine = le texte argumentatif2

[1]– المشوق في الأدب والنصوص والمطالعة الموجهة للسنة الأولى من التعليم الثانوي (جذع مشترك آداب)، ص 6.

[2]– المصدر نفسه ص 6

[3]–Christian Plantin/l'argumentation/ Editions du Seuil 1996 p18

(4)- المشوق في الأدب والنصوص والمطالعة الموجهة للسنة الأولى من التعليم الثانوي(جذع مشترك آداب) ص 24 ــ 28

(5)- المصدر نفسه ص 7

Jacque Moeshler/Dictionnaire encyclopédique de pragmatique Editions du Seuil1994 -(6)

(-(7 Christian Plantin/l'argumentation p P 25 -26

(Ibid. P 60 -(8

(Ibid. p 66 -(9

(10)- Ibid. p68

(11) ــ عبد الله صولة :الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية /منشورات كلية الآداب بمنوبة 2001/السلسلة :لسانيات المجلد :13 ص 75

(12)- Dominique Maingueneau -pragmatique pour le discours littéraire p 77

(13)- Jacque Moeshler/Dictionnaire encyclopédique de pragmatique p 24

(14)- Dominique Maingueneau -pragmatique pour le discours littéraire p81

(15)- Ibid. p79 e suite

(16)ــ شوقي المصطفى :المجاز والحجاج في درس الفلسفة بين الكلمة والصورة /دار الثقافة الدار البيضاءط1 –2005 ص 30

(17) ــ أبو الحسن حازم القرطاجني : منهاج البلغاء وسراج الأدباء /دار الغرب الإسلامي بيروت ط2 1981 ص 362

(18)ــ نفسه ص293

(19)ــ حسان الباهي :الحوار ومنهجية التفكير النقدي /أفريقيا الشرق –المغرب – 2004ص 103

(20) ــ المرجع نفسه ص105

*****- الخطاطة مستوحاة من : شوقي المصطفى :المجاز والحجاج في درس الفلسفة بين الكلمة والصورة ص 51**